

عن هذه الكتب وكأننا بإزاء دائرة معارف في البلاغة تحمل كل مادتها الموروثة. ويلقانا ذلك الصنيع في جميع الشروح التي وُضعتْ على كل المتون في القراءات والنحو والفقه وأصول الدين وعلم الكلام والفلسفة، فقد مضى العلماء في مصر والشام يخالطون أسلافهم وما صنّفوه في كل فرع من فروع العلم مخالطة نادرة أتاحت لشروحهم على المتون في كل فن أن تستحيل إلى ما يشبه دوائر معارف، تجمع كل الآراء السالفة فيه.

ولم تكن فكرة دوائر المعارف الكبرى ^{مختّبة} عنهم، ونقصد الدوائر التي تشمل على عشرات الأسفار والمجلدات والتي تحتفظ بمادة التراث العلمي والأدبي، وأشهر ما خُلفوه في هذا الجانب دائرتان، هما نهاية الأرب في فنون الأدب للنويزي المصري ومسالك الأبصار لابن فضل الله العُمريّ الدمشقي. والدائرة الأولى في نيف وثلاثين مجلداً، وهي مقسمة إلى خمسة أقسام، وكل قسم موزع على أبواب، والقسم الأوّل يتناول ما يقابل اليوم علوم الفلك والجغرافية والتاريخ الطبيعي، ويتناول القسم الثاني كل ما يتصل بالإنسان وطبائعه وآدابه وعاداته وصورة مجتمعه وما يداخله من طرق الحكم ووظائف الدولة وشئون السياسة، وبعبارة أخرى يتناول هذا القسم العلوم والآداب المتصلة بالإنسان، والقسم الثالث يتناول الحيوانات وحشيتها وأليفها والزواحف والأسماك والطيور والصيد، مما يتصل بعلم الحيوان والأحياء، ويتناول القسم الرابع النباتات والثمار والأزهار، مما يدخل في علم النبات، أما القسم الخامس فخاصّ بتاريخ الدولة العربية وما انشعبت إليه من إمارات ودول من أقدم العصور حتى عصر النويزي متدرجاً بها ومنحدرًا مع السنين، وفي جميع الجوانب تساق الأشعار ونماذج النثر الطريفة. أما مسالك الأبصار ففي نيف وعشرين مجلداً، وهو مقسوم قسمين كبيرين: قسمًا يتصل بالأرض وجغرافيتها وبلدانها وخاصة بلدان العالم العربي، وقسمًا يتصل بسكانها غربًا وشرقًا ترجم فيه ترجمات واسعة للأدباء والعلماء من كل صنف على مدار الزمن، وأفاض في العلوم الطبيعية والحيوانية والنباتية وفي تاريخ الدول حتى عصره. وبجانب هاتين الدائرتين الكبيرتين كتب دوائر مختصرة